جـ ــ الوقف على المقابر والترب :

وعمد بعض واقفي الكتب إلى إنشاء مكتبات في المقابر والترب، ووقف كتبهم عليها، ولا شك أن هذه المكتبات كانت تستخدم، وإن كنا نعتقد أن استخدامها كان أقل من الأنواع السابقة من المكتبات الوقفية.

ومن هذه المقابر والترب :

تربة أم الخليفة في بغداد :

ويبدو أنها السيدة سلجوقي خاتون بنت الملك قليج أرسلان السلجوقي زوجة الملك الناصر لدين الله التي توفيت في عام ٥٨٤هـ، وأنشأ الخليفة عليها تربة ووقف «فيها خزانة كتب نفيسة وكانت على شاطيء دجلة بالجانب الغربي من بغداد»[٤١].

ثم وقف عليها خمسمائة مجلداً نجم الدين أبو اليمن نجاح بن عبد الله الشرابي الملقب بالملك الرحيم، والذي كانت له خزانة كتب وقفت بعد موته في سنة ٦١٥هـ. وهذه التربة هي التي يشير إليها ابن الفوطي عند حديثه عن عز الدين المتوفى سنة ٦٢٣ فذكر أنه خازن الكتب الخلاطية، وعلق المحقق بأن المقصود بها تربة السيدة سلجوقي[٤٣].

ولعل هذه المكتبة هي التي يقصدها ياقوت الحموي في ترجمته لعلي بن فضال المجاشعي حيث أشار إلى أنه رأى في الوقف السلجوقي ببغداد نسخة من كتابه الدول في التاريخ في ثلاثين مجلداً ويعوزه شيء آخر[٤٤].

تربة ابن البزوري في الصالحية بدمشق :

وكان عز الدين أبو بكر محفوظ بن معتوق ابن البزوري البغدادي، قد استوطن دمشق «وحصل الكتب النفيسة... ووقف كتبه على تربة أنشأها بالصالحية ودفن هناك سنة ٦٩٤»[٤٥].

التربة العزية االبدرانية الحمزية بالصالحية بدمشق :

أنشأها حمزة بن موسى بن أحمد بن الحسين بن بدران عز الدين أبي يعلي

المعروف بابن شيخ السلامية المتوفى سنة ٧٦٩ «ووقف درساً.. وكتباً وعين لذلك الشيخ زين الدين بن رجب»[٤٦].

القبة المنصورية في القاهرة :

وكانت مقابلة للمدرسة المنصورية.

وهي من أعظم المباني الملوكية وبها قبر تضمن الملك المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الملك الناصر محمد قلاوون والملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد قلاوون.. وفي هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة وبهذه القبة خزانة جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب في أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره[٤٧].

تربة قرا أوغلي في استنابول :

ويبدو أنها كانت تضم مكتبة، فقد وقف عليها أحمد بن عبد الله قرا أوغلي المتوفى سنة ٩٤١هـ جميع كتبه[٤٨].

تربة أحمد باشا الكوبري في استنابول :

وكان أحمد باشا بن محمد باشا الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحمد باشا الكوبري أحد وزراء الدولة العثمانية والمتوفى في سنة ١٠٨٧هـ قد ملك نفائس الكتب فوقفها قبل وفاته: «في خزانة بالتربة المذكورة ورتب لها أربعة حفاظ، وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان وأخبرني بعض من أثق به أنها ضمنت بأربعين ألف قرش»[٤٩].

د ــ نماذج أخرى :

وشاع أمر المكتبات حتى وصل الخلاوي والتي كان الأصل فيها الانقطاع للعلم والعبادة، فقد كانت **خلوة الكماخي** بالقاهرة تضم مكتبة، فقد أشار السخاوي أن أحمد الشهاب الحجازي نزيل القاهرة المتوفى سنة ٨٩٣هـ «سكن بخلوة الكماخي.. وتكلم في خزانة كتبها»[٥٠]والنص يشير إلى وجود المكتبة وإلى استخدامها مركزاً للتعليم أيضاً.

هـ ــ الوقف غير المحدد :

وترد في كتب التراث مئات النصوص التي تشير إلى قضايا تتعلق بوقف الكتب ولكن دون تحديد للمكان، مع وقوع إشكالات في تحديد الفئات التي جعل الوقف عليها، وغالباً ما تأتي هذه النصوص بصيغة عمومية من مثل... أن فلاناً كتب نسخة من الكتاب الفلاني ووقفها، أو وقف كتبه على المسلمين... أو وقف كتبه على طلبة العلم، أو بعث بكتاب ووقفه على المدينة الفلانية.

ولكن مثل هذه النصوص توضح مدى انتشار وقف الكتب بين كافة فئات المجتمع وعلى امتداد القرون، وهي في نفس الوقت قد لا تكون دقيقة إذ من الممكن أن تكون بعض الكتب التي وقفت وأشير إليها في هذه النصوص قد جعلت في أماكن بعينها مثل المدارس أو المساجد أو الربط أو دور الكتب، ولكن ناقل الخبر اكتفى بالجزء الخاص بوقفها وتجاوز تحديد مكانها، أو أنه عرف بالوقف دون المكان الذي وقفت عليه.

وأكثر ما تردد هذه النصوص عند التعرض لوفيات أشخاص أو الترجمة لهم في كتب التاريخ والتراجم.

ويبدو أن مثل هذه الكتب الوقفية تتعرض للإهمال، خاصة إذا استبقيت في الملك الخاص وجعلت بين يدي الورثة، إذ يصبح مصيرها البيع، أو الحجر، ونادراً ما يستفاد منها الفائدة التي أرادها منها الواقف.

وسنورد هنا جملة من النصوص ذات العلاقة بهذا الموضوع، معتمدين في ترتيبها على تاريخ الوقف إن وجد أو تاريخ وفاة الواقف.

فاسماعيل بن علي بن الحسين أبو سعد السمان المتوفى سنة ٤٤٥هـ، وهو من أئمة المذهب الحنفي من أبرز وأقدم الذين وقفوا كتبهم دون أن تحدد المصادر مكان وقفها فقد قيل بأنه «خلف ما جمعه طول عمره من الكتب وقفاً على المسلمين»[٥١].

ومنهم المؤرخ المحدث أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفي سنة ٤٦٣هـ فقد قيل بأنه «وقف جميع كتبه على المسلمين»[٥٢] والمرجح أن

شخصاً مثل الخطيب البغدادي لديه من الحصافة ما يدفع به إلى أن يوقف كتبه في مكان عام حتى يتمكن من يرغب في الاستفادة من اللجوء إليه في سهولة، ومن هنا فإنه على الأغلب قد وقف كتبه في جامع أو مدرسة أو إحدى دور الكتب التي كانت معروفة في بغداد.

وورد النص المتعلق بوقف أبي عبد الله الحميدي الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٨هـ بصفة غريبة فلم يحدد المكان فقيل «وقف كتبه»[٥٣].

وعند حديث الذهبي على أبي المعالي عبد الله بن أحمد بن محمد بن حمدويه الحلواني المروزي البزاز المتوفى سنة ٥٣٩هـ ذكر أنه «سكن غزنة مدة واشترى كتباً كثيرة وقفها وأنشأ رباطاً للمحدثين بمرو»[٥٤] وصيغة النص توحي بأن الوقف لم يكن في مكان محدد، ولكن قد نذهب إلى أنه جعله في الرباط الذي أنشأه للمحدثين، وهو رأي له وجه من القبول.

وذكر أن أبا الفضل محمد بن ناصر السلامي أحد الحفاظ الكبار والذي توفي في سنة ٥٥٠هـ «وقف كتبه وخلف ثياباً خليقاً وثلاثة دنانير»[٥٥]،وأشار مصدر آخر إلى ما فعله السلامي فقال: «وقف كتباً كثيرة»[٥٦] ولكن كلا المصدرين لم يحدد المكان، وإن كان الثاني وهو الأقدم قد وصفها بالكثرة.

وكان عمرو بن حمير بن عبد الحميد التباعي السحولى المخادري المتوفى آخر المائة السادسة تقريباً بمكة المكرمة، من أعيان فقهاء اليمن، كثير الحج، وكانت له كتب وقفية «منها البيان، عليه سماعه على المصنف وإجازته منه»[٥٧] والجملة توحي بأن ناقل الخبر قد شاهد الكتاب، وعليه فإن الوقف كان في إحدى دور الكتب بمكة المكرمة ولكن لا نعرف أيها.

وينقل أحد المؤرخين في معرض ترجمته لعبد الله بن على آل زرقان اليمني وهو من أهل القرن الرابع الهجري أنه.

سمع في ذمار من أبي زيد المروزي الجامع الصحيح للبخاري، قال القاضي طاهر بن يحيي بن أبي الخير العمران، ورأيت أصله في ذلك مخالفاً في الترتيب لسماع أبي ذر الهروي، وهذا الأصل مع غيره من

كتبه في الكتب الموقوفة بذي أشرف يسر الله للراغبين من المسلمين خلاصها من يد من غلها وتملكها.[٥٨].

ولا يحدد النص لنا تاريخ الوقف أو المكان المحدد ولكن لعل ذلك كان في فترة من القرن الخامس أو أوائل السادس لأن الجعدي وهو الذي أورده كان من أهل القرن السادس الهجري.

ويذكر الفاسي أن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قفل الزيادي الحضرمي المكني بأبي قفل المتوفى سنة ٦٣١هـ «كتب الكثير بخطه... وقف كتبه بمكة»[٥٩].

أما الكمال اسحاق بن أحمد المغربي المقدسي المتوفى سنة ٦٥٠ هـ فكان «ينسخ في كل شهر رمضان ختمة ويوقفها»[٦٠] ولعله كان يوقفها على المساجد فهي المكان الأنسب لها.

ودفع حب الخير والرغبة في المساهمة في تطوير المجتمع، الفقيه اليمني أحمد محمد الشكيل بن سليمان ابن أبي السعود إلى نسخ كتب بيده وشراء أخرى ومن ثم وقفها على طلبة العلم ببلده من ذريته وغيرهم[٦١].

وكان رئيس الدين أبو الحسين يحيي بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج القرشي النابلسي المتوفى سنة ٦٦٢هـ في مصر «حافظاً ثبتاً انتهت إليه رئاسة الحديث بالديار المصرية» قد وقف كتبه كما يشير الذهبي الذي لم يحدد مكاناً لها[٦٢]، وقد ذكر خبر وقفه لكتبه ابن شاكر الكتبي بيد أنه أيضاً لم يحدد مكاناً لها[٦٣].

واعتنى أحد أمراء بني رسول باليمن بالثقافة والعلم، فكان أن «نسخ عدة من الكتب والمصاحف والمقدمات ووقفها في عدة من الأماكن»[٦٤].

ويشير طاشكبري زاده إلى أن أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع موفق الدين الكواشي الموصلي المتوفى سنة ٦٨٠هـ ألف «التفسير الكبير والصغير جود فيه الإعراب وحرر أنواع الوقوف وأرسل منه نسخة إلى مكة والمدينة والقدس»[٦٥]

والإشارة هنا مبهمة لا تمكن من تحديد مكان نظراً لكثرة المكتبات الوقفية في المدن المشار إليها، فقد يكون أرسلها كي توقف على مدارس أو جوامع أو ربط فيها.

وأكب عبد الواحد الجزولي المتوفى سنة ٧١٧هـ على نسخ العلم في رباط دوكالة بالمدينة، «ووقف كثيراً مما كتبه... وفرقه قبل موته بيسير»[٦٦].

وكان محمد بن داود بن محمد شمس الدين الموصلي المتوفى سنة ٧٢٨هـ أحد تجار القطن، وقد وجد هذا التاجر في وقف الكتب طريقاً من طرق الإسهام في خدمة مجتمعه فوقف «كتباً كباراً بدمشق وبغداد»[٦٧].

وإذا كان الموصلي تاجراً قادراً، فإن رشيد بن عبد الله شهاب الدين السعدي المتوفى بعد العشرين وسبعمائة، كان خادماً في المسجد الحرام، وكان يصحب العلماء «ويشتري كتب العلم، ويوقفها عليهم، وله خزانة جيدة كان منها كتب غريبة»[٦٨].

ووقف الملك المؤيد صاحب حماة اسماعيل بن علي أبو الفداء ابن الأفضل المتوفى سنة ٧٣٢ جملة من كتبه وفرق أخرى على أصحابه عقب موت ابنه[٦٩]، ويبدو أن ذلك كان نوعاً من الصدقة على روح الميت.

وساهم المحدث الشهير علم الدين البرزالي الذي تولى مشيخة الحديث النورية ومشيخة النفيسية في هذا الميدان، فوقف كتبه وعقاراً جيداً على الصدقات وكانت وفاته بخليص عام ٧٣٩[٧٠]، ومن الصعب أن يكون قد وقفها بخليص إذ أنها كانت طريقاً مر به وهو في رحلة الحج، ولكن لعله وقفها في إحدى مدارس الحديث خاصة النورية.

وحصل عماد الدين أبو اسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن يعقوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب المتوفى سنة ٧٤٦ «أجزاء كثيرة وأوقفها»[٧١].

كما وقف علي بن الحسين بن علي المصري الدمشقي الشهير بابن البناء وهو مصري مات بدمشق سنة ٧٤٨هـ «كتبه على طلبة العلم وأكثرها بخطه منها المجتبى للنسائي والسنن لابن ماجة»[٧٢].

ورأى السخاوي نسخة من تفسير القرطبي بخط أحمد بن يحي بن الحسين ابن سالم الأنصاري الحنفي وقفها بالمدينة سنة ٧٥٠هـ وجعل النظر لعبد السلام ابن سعيد القيرواني[٧٣].

وجعل أحمد بن سعد بن عبد الله العسكري الأندرشي المتوفى سنة ٧٥٠هـ «كتبه وقفاً على أهل العلم»[٧٤].

ويشير الفاسي إلى أن أبا العباس أحمد بن علي بن أبي بكر العبدري الميورقي المؤرخ، المتوفى سنة ٦٧٨هـ «كتب بخطه تعاليق مشتملة على فوائد جمة ووقفها مع كتبه بوج الطائف، وكان سكنه مدة سنيين»[٧٥].

ولعل المكان الذي جعلت فيه هذه الكتب الموقوفة هو مسجد ابن عباس إذ أنه كان أشهر مكان في مدينة الطائف في عصر الميورقي.

وكان محمد بن أحمد بن حسن العينتابي وهو من أهل القرن التاسع، خطاطاً مجيداً كتب لنفسه ولغيره. وقد وقف مجموعة من المصاحف بخطه[٧٦].

ووقف إبراهيم بن محمد بن حسين برهان الدين المعروف بالموصلي المالكي نزيل مكة المتوفى سنة ٨١٥هـ «كتبا بخطه منها شرح ابن الحاجب وغيره»[٧٧].

ويذكر السخاوي أن علي بن محمد العلاء بن الشمس الكردي الشرابي، وهو من أفاضل القرن التاسع الهجري كانت له مساهمات في المصالح العامة مثل بناء المساجد ووقف كتب العلم على طلبته[٧٨].

وحظي عالم المدينة في القرن التاسع الهجري على بن عبد الله السمهودي بإعجاب كبراء عصره، وكان من ثمار ذلك الإعجاب أن وقف سلطان مصر وغيره على المدينة كتباً من أجله، كما اشترى الأمير داود بن عمر حين حج كتباً من أجله ووقفها[٧٩]. منها فتح الباري، وقد جعل مردها إليه.[٨٠].

وشارك بشير الحبشي المتوفى سنة ٨٦٤هـ وكان مولى للخواجا يعقوب كرت فأوقف كتباً والمرجح أن وقفها كان في مدينة القاهرة، [٨١] وفعل مثله نزيل الأزهر عيسى الزواوي المغربي المتوفي سنة ٨٧٨ إذ يقال: إنه وقف كتبه[٨٢].

وقام عبد السلام بن محمد بن محمد الإمام العز بن الشمس محمد الخشبي المدني بكتابة نسخة من تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة انتهت في جمادي الثانية سنة ست عشر وثمانمائة، وذلك في حياة مؤلفها الذي وقفها وشهد الناسخ على الوقفية[٨٣].

وكان من ضمن ما خلفه سراج الدين عمر بن حسين بن حسين العبادي الشافعي المتوفى سنة ٨٧٧هـ بعض الكتب الموقوفة[٨٤].

كما أوقف مهندس معماري يدعى بهادر عاش في القرن العاشر أو قبل ذلك كتباً بالمدينة من بينها الصحيحان[٨٥].

وساهم مجموعة من علماء الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري في هذا المجال، فوقفوا كتبهم، وكان من بينهم بالي الأيديني الذي «كانت له كتب كثيرة وقف كلها على العلماء والصالحين»[٨٧] وعبد الواسع بن خضر المتوفى سنة ٩٤٥هـ «وقف جميع كتبه على العلماء بمدينة أدرنة» حيث كان يدرس في إحدى مدارسها[٨٨].

وشارك خطاب الضرير المتوفى بدمشق سنة ٩٦٨هـ، والذي كان أحد الفقراء المهتمين بالعلم بوقف المصاحف، فكان «إذا حصل له شيء من الدراهم اشترى به مصحفاً ووقفه»[٨٩].

وجمع عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن السقاف المتوفي سنة ١٠١٤ من الكتب النفسية « ما لم يجمعه أحد من أهل عصره ووقفها على طلبة العلم الشريف بمدينة تريم»[٩٠].

وذكر بعض أحفاد نور الدين علي بن سلطان الشهير بملا علي القاري المتوفي سنة ١٠١٤هـ أنه كان لجدهم ثلاثمائة من المؤلفات «وأنه أوقفها وشرط بأن لا يمنع من استنتساخها»[٩١].

وكتب عبد اللطيف بن محمد محب الدين بن أبي بكر تقي الدين المتوفى سنة ١٠٢٣هـ وهو أحد فضلاء عصره كتباً كثيرة بخطه وضبطها، وقد وقفها

وغيرها كما يورد المحبي حيث يقول : «ورأيت من ممتلكاته التي وقف أكثرها آخر أمره ما يقارب مائة وخمسين كتاباً وغالبها بخطه، فما وجدت كتاباً منها خالياً من تصحيح وتحرير له»[٩٢].

وشبيه بالسابق، ما أورده المحبي في معرض حديثه عن الحسن الكردي العمادي نزيل دمشق، والذي توفي في عام ١٠٤٨ حيث يقول «كتب بخطه الكثير من الكتب.. ووقف جميع كتبه على طلبة العلم بدمشق، قلت، وهذه الكتب موضوعة عند بني السعسعاني هي وكتب الدفتري وهي محتوية على نفائس الكتب»[٩٣].

وجمع علي بن حسين بن عمر بن حسين المتوفى سنة ١٠٦٩هـ «كتباً عظيمة ووقفها على طلبة العلم الشريف»[٩٤].

ومن الذين وقفوا كتبهم في مكة المكرمة دون تحديد لمكان وقفها أخوند جان البخاري ابن المفتي محمد هادي بن محمد مراد الميرغيناني المتوفى سنة ١٣٢٠هـ[٩٥].

ويذكر محمد صالح بن علي باعشن أن المكتبة التي خلفها والده، وكانت في صندوقين كبيرين جميعها موقوفة على عبد الله بن..العطاس[٩٦].

* * *

ويصعب على المرء أن يضمن كل ما ورد من نصوص حول الكتب التي أشير إلى وقفها دون تحديد دقيق للمكان الذي وقفت فيه نظراً لكثرتها، وتناثرها في بطون كتب التراث المنشورة والمخطوطة، ولعل فيما أوردناه هنا ما يعطي دلالة على انتشار هذا النمط من الوقف انتشاراً واسعاً بين أفراد المجتمع في العالم العربي والإسلامي، ونلاحظ من النصوص أن بعض ما وقف كان عبارة عن نسخة من كتاب، بينما كان البعض الآخر كتباً لم يحدد عددها، فقد تكون عشرات، وقد تصل إلى المئات، ونخلص بنتيجة من خلال تتبع هذا النمط من الوقف، وهو أن عدم ذكر المكان الذي وقفت عليه قد يكون لأحد الأسباب التالية :

١ ــ قلة عددها.

٢ ــ ضعف مادتها العلمية.

٣ ــ عدم تأكد الذين أشاروا إليها من الأماكن التي وقفت عليها على الوجه الصحيح.